

ابو نواس في القسطاس

قيس آل قيس

استاذ اللغة العربية المساعد

في قسم اللغة العربية

الحمد لله على افضاله

شؤون كاه علوم انساني ومطالعات فرنسي

رتال جامع علوم انساني

و بعد:

مدينة الاهواز احدي المدن المشحونة بالعلماء و الادباء و الشعراء منذ مضرت
الي يومنا هذا، و قد خرج منها كوكبة من اعيان العلماء و كبار الادباء و فحول
الشعراء، كابي محمد الجواليقي الاهوازي (عبدالله بن احمد بن موسى)، و
الضحاك بن زيد الاهوازي، و ابي الطيب محمد بن احمد بن موسى بن هارون بن
الصلت الاهوازي، و زيد بن الحريش الاهوازي، و ابي الحسين محمد بن الحسن بن
احمد بن محمد بن موسى بن عمران الاهوازي، و ابي علي الحسن بن علي بن
ابراهيم بن يزداد الاهوازي، و الحسين بن سعيد بن حماد بن سعيد بن مهران الاهوازي

الفقيه، و ابى يعقوب الاهوازى الطيب، و ابى الحسن على بن مهزيار الاهوازى، و...^١

و من هذه الكوكبة التى نورت سماء الادب و العلوم الشاعر الشهير ابو نواس الحسن بن هانى.

و قد اتفقت كافة المصادر التى ترجمته بانه ولد فى الاهواز، ثم انتقل الى البصرة، و رحل الى بغداد فاتصل بالخلفاء العباسيين.

قال الجاحظ: ما رأيت رجلا اعلم باللغة ولا أفصح لهجة من أبى نواس.

و قال أبو عبيدة: كان ابو نواس للمحدثين كامرى القيس للمتقدمين.

و قال كلثوم العتابي: لو ادرك ابو نواس الجاهلية ما فضل عليه احد.

و قال الامام الشافعى: لولا مجون أبى نواس لاختذت عنه العلم.^٢

و هو اول من نهج للشعر طريقته الحضرية و اخرجه من اللهجة البدوية، و قد

نظم فى جميع انواع الشعر.

اما عقيدتى فهى ان ابا نواس لم يكن من احب الشعراء التى و آثرهم عندى، و

لعله بعيد كل البعد من ان يبلغ من نفسى منزلة الحب او الايثار، و لقد اتى على حين

من الدهر لم يكن يخطر ببالى انى ساهتم بابى نواس او اطيل التفكير فيه.

نعم انى لست من المحبين لابى نواس ولا المشغوفين بشخصه و فنه و غزلياته و

همرياتة، و لست من المفرمين بمجونه.

و لعل القارى العزيز يتساءل لم هذا التهكم؟ فاقول: ان ابا نواس كان و ما زال

حديث الناس المتصل منذ اكثر من احد عشر قرنا. فاذا توضحت كتب القدماء

ككتاب الشعر و الشعراء لابن قتيبة، و الموشع للمرزبانى و نزهة الالباء لابن

١ - راجع الاهواز فى معجم البلدان، و الاهوازى فى: الانساب للسمعانى، و الاعلام

للزركلى، و معجم المؤلفين لحمرضا كحالة، و قاموس الرجال للعلامة آية... العظمى الشيخ

محمدتقى التستري (مدظله)، طبعة سنة ١٤١١ هـ، ج ١، الرقم ٥١١، ٥٨٧، ج ٣، الرقم ١٩٠٨.

٢ - الاعلام للزركلى، ج ٢، ص ٢٤٠.

الانبارى، و خزانه الادب للبغدادى ووفيات الاعيان لابن خلكان، و العقد الفريد لابن عبد ربه الاندلسى، و تاريخ بغداد للخطيب البغدادى، و نهاية الارب للنويرى، و تاريخ دمشق لابن عساكر. او تصفحت كتب المعاصرين كتواريخ الادب العربى برمتها، و كتاب حديث الاربعاء للدكتور طه حسين،^١ و كتاب ابى نواس (حياته و شعره) لمصطفى عمار،^٢ و كتاب ابى نواس شاعر هارون الرشيد لعمر فروخ،^٣ و كتاب عصر المامون لاحمد الرفاعى،^٤ لرايته بعد الثناء على غزلياته و فمريات شاعراً مجاهراً بالفسوق، و ماجنا كثير المجون، يشرب الخمر، و يرتكب المآثم، و يهتك المحارم.

لهذا كبلت ابا نواس و شعره و فنه و صنعته باشد القيود و اثقل الاغلال طيلة دراستى و تدريسى فى الجامعة، طغياناً على نفسى و عصياناً لهواها.

و شاءت الاقدار ان المح اثناء مراجعتى لكتاب الذريعة الى تصانيف الشيعة كتاباً تحت عنوان: «فضل ابى نواس و الرد على الطاعن فى شعره»^٥ تأليف ابى الحسن على بن محمد العدوى الشمشا طى الأديب اللغوى صاحب كتاب مختصر فقه اهل البيت (ع)، و كتاب البرهان فى النص الجلى على امير المؤمنين^٦. و هنا نبذت الاحتياط و قررت البحث عن هذا الكتاب على اسطيع كسر القيود التى قيدت بها نفسى. و رغم مثابرتى فى البحث الجدى لم اعثر على هذا المؤلف، و لكنى رأيت صاحب الاغانى قد ذكر ان النواسى قد نسك فى آخر ايامه و

١ - ص ٢٩١.

٢ - طبع فى القاهرة سنة ١٩٢٩ م، ١٩٣٨ م.

٣ - طبع فى بيروت سنة ١٩٣٣ م.

٤ - ج ٣، ص ٢١٦-٢٤٨.

٥ - الذريعة، ج ١٦، ص ٢٦٥، الرقم ١٠٩٤.

٦ - انظر ترجمته فى: اعيان الشيعة، ج ٤٢، ص ٢٥، و الرجال للنجاشى، ص ١٨٦، و

تفنيح المقال للشيخ المامقانى، ج ٢، ص ٣٠٦.

حج بیت الله الحرام^١. و هذا النبا جعلنى ارسل نفسى على سجيتهما تتجول فى ديوان
ابى نواس.

و بعد هذه الجولة عرفت ان ابا نواس رغم مجاهرته بالمجون و شهرته باحتساء
الخمرة، الا ان هذه الحالة لم توافق هواه كثيراً، و خصوصاً بعد ان حج
بیت الله الحرام و تنسك، فترى شعره قد انتقل من نهجه المعهود الى الزهد و التقوى
فاضحى شعره اشبه بالتضرع الذى يصدر عن نفس اسرفت فى المعصية و غرقت
فى الخطيئة و الفوضى، ثم عرفت الحق جيداً و ادركته بجلاء، و ظهرت كلمات نظمه
متسمة بالشعور العميق بالندم و الخوف من المصير المجهول، و يكون من عادة
صاحبها - فى هذه الحالة - محاولة ايداء النفس بالتقريب المستمر على ما فرط منها، و
الالتجاء الى عفو الله و غفرانه، و الى الاقرار بالتوبة، مرضاة للغفور الرحيم.
و عندما حج بيت الله الحرام عبر عن حنينه الى العودة الى جادة الصواب فانشد
مناجاة رائعة و تلبية خاشعة فى قصيدة عنوانها «نجوى و دعاء»:

الهننا ما اعدلك عليك كل من ملك
لييك قدليت لك

لييك ان الحمد لك والمملك لا شريك لك
ماخاب عبد سألک انت له حيث سلك
لولاک يا رب هلک

لييك ان الحمد لك و المملك؛ لا شريك لك
كل نبي و مملك و كل من اهل لك^٢
و كل عبد سألک سبح او لبي فلک
لييك ان الحمد لك و المملك؛ لا شريك لك

١ - الاغانى (طبعة بولاق)، ج ١٦، ص ١٤٨-١٥١.

٢ - اهل لك: فرح و صاح بصوت مرتفع.

والليل لما ان حلك و السابحات فى الفلك^١
على مجارى المنسلك^٢
لبيك ان الحمد لك و الملك؛ لاشريك لك
اعمل و بادر اجلك و اختتم بخير عملك
لبيك ان الحمد لك و الملك؛ لاشريك لك
لبيك قد لبيت لك^٣

كما نرى كلا ركل الهم قد سيطرت على كيانه فضايق صدره بها فانشد قصيدة سماها «اسفا على الماضى»:

اصبر لمر حوادث الدهر فلتحمدن مغيبة الصبر^٤
و امهد لنفسك قبل ميبتها و اذخر ليوم تفاضل الذخر
فكأن اهلك قد دعوك، فلم تسمع، و انت محشرج الصدر^٥
و كأنهم قد عطروك بما يتزود الهلكى من العطر
و كأنهم قد قلبوك على ظهر السرير و ظلمة القبر^٦
يا ليت شعرى كيف انت على ظهر السرير و انت لاتدرى؟!
اوليت شعرى كيف انت اذا غسلت بالكافور و السدر
اوليت شعرى كيف انت اذا وضع الحساب صبيحة الحشر؟!
ما حجتى فيما اتيت، و ما قولى لربى، بل و ما عذرى
ان لا اكون قصدت رشدى او اقبلت ما استدبرت من امرى
يا سواتا مما اکتسبت، و يا اسفى على ما فات من عمرى^٧

١ - حلك: اظلم و اشتد ظلامه.

٢ - المنسلك: المكان المسلوک، و هو يريد: مدارات النجوم.

٣ - الديوان (طبعة دارالكتاب العربى- بيروت)، ص ٦٢٣.

٤ - مغبة الصبر: عاقبته.

٥ - الحشرجة: الغررة عند الموت و تردد النفس.

٦ - السرير: النعش.

٧- مراجع الديوان، ص ٦٠٩

و اظن ان ابا نواس قد تأثر بنص الآية الكريمة
 «لن يجيرني من الله احد و لن احد من دونه ملتجداً»^١.
 فقال:

ايما من ليس لى منه مجير	بعضوك من عذابك استجير
انا العبد المقر بكل ذنب	وانت السيد المولى الغفور
فان عذبتنى فبسوء فعلى	وان تغفر فانت به جدير
افر اليك منك... و آين الا	اليك يفر منك المستجير ^٢
اما القيامة فقد سخرت فكره، و شغلت حيزاً فى عقله، فقال فيها:	
رضيت لنفسك سوآتها	ولم تال جهدا لمرضاتها ^٣
و حسنت اقبح اعمالها	و صغرت اكبر زلاتها ^٤
و كم من طريق لاهل الصبا	سلكت سبيل غواياتها
فاى دواعى الهوى عفتها	و لم تجر فى طرق لذاتها ^٥
واى المحارم لم تنتهك	واى الفضائح لم تاتها
وهذى القيامة قد اشرفت	تريك مخاوف فزعاتها
و قد اقبلت بمواعيدها	واهو الهافارع لوعاتها
وانى لفى بعض اشراطها	و آياتها، و علاماتها ^٦
تبارك رب دحا ارضه	و احكم تقدير اقواتها ^٧

٧ - راجع الديوان، ص ٦٠٩.

١ - سورة الجن، الآية ٢٢.

٢ - الديوان، ص ٦١٠.

٣ - سوآتها: جمع سوءة و هى الخلة القبيحة.

٤ - الزلة: الخطيئة و السقطة.

٥ - دواعى الهوى: اسبابه و بواعثه.

٦ - اشراطها: علاماتها.

٧ - دحا ارضه: بسطها و مهدها.

فما نرعى لاجابها ولا لتصرف حالاتها^١
 ننافس فيها، و ايامها تردد فينا بافاتها
 اما يتفكر احيائها فيعتبرون بامواتها^٢

.....

و نرى ابا نواس يستهين بمظاهر الدنيا الفانية و يخاطب النفس قائلاً:

لاتفرغ النفس من شغل بدنها
 انا لتنفس فى دنيا مولية^٣
 حذرتك الكبر لا يعلقك ميسمه^٤
 يا بؤس جلد على عظم مخرقة
 يرى عليك به فضلا يبين به
 مثلن على نفسه، راض بسيرتها
 انى لامقت نفسى عند نخوتها
 انت اللثيم الذى لم تعد همته
 يا راكب الذنب قد شابت مفارقه
 رأيتها لم ينلها من تمنائها
 ونحن قد نكتفى منها بادناها
 فانه ملبس نازعته الله
 فيه الخروق اذا كلمته تاها^٥
 ان نال فى العاجل السلطان والجاها
 كذبت يا خادم الدنيا و مولاها^٦
 فكيف آمن مقت الله اياها
 ايثار دنيا اذا نادته لبها
 اما تخاف من الايام عقبها^٧

و له ابيات تذكر الانسان بمرقده فى الاجداث، منها:

الاتاتى القبور صباح يوم
 فان سكونها حرك تنادى
 فتسمع ما تخبرك القبور؟!
 كان بطون غائبها ظهور^٨
 و يظهر ان الآية (١٩) من سورة «ق»^٩ قد خامرت فكره و اثرت فيه تأثيرا

١ - نرعى: نرجع، تكف عن.

٢ - راجع الديوان، ص ٦١١.

٣ - نفس بنفس نفاسة و نفاسا: كان مرغوبا فيه

٤ - الميسم: الاثر

٥ - الخروق: منافذ الجسم كالنم و الانف و ...

٦ - المولى: يقصد هنا العبد و هى من الاضداد و تاتى بمعنى السيد ايضا.

٧ - انظر الديوان، ص ٦١٣.

٨ - راجع الديوان، ص ٦١٣.

٩ - و نصها: وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت عنه تحيد.

عبر عنه بكلمات شعره الموسوم «بالموت»، فقال:

الموت منّا قريب و ليس عنا بنازح^١
 فى كل يوم نعى تصيح منه الصوائح
 تشجى القلوب وتبكى مولولات النوائح^٢
 حتى متى انت تلهو فى غفلة، و تمازح؟!

والموت فى كل يوم فى زند عيشك قباح
 فاعمل ليوم عبوس من شدة الهول كالح
 ولا يفرنك دنيا نعيمها عنك نازح
 و بغضها لك زين و حُبها لك فاضح^٣
 و وصف الكفن بقوله:

سكن يبقى له سكن ما لهذا يوذن الزمن
 نحن فى دار يخبرنا ببلاها ناطق لحن^٤
 دار سوء لم يدم فرح لا مرى فيها ولا حزن
 كل حى عند ميتته حظه من ماله الكفن^٥

و قد اثقلت الذنوب كاهله فقال نادما:

اذا ما خلوت الدهر يوما، فلا تقل خلوت، ولكن قل على رقيب
 ولا تحسبن الله يغفل ساعة ولا ان ما يخفى عليك يغيب
 لهونا بعمر طال حتى ترادفت ذنوب على آثارهن ذنوب^٦

١ - النازح: البعيدُ

٢ - النوائح: الباكيات.

٣ - الديوان، ص ٦١٤.

٤ - لحن: فصيح

٥ - الديوان، ص ٦١٥.

٦ - الديوان، ص ٦١٥.

وقد ملك الخشوع قلبه فقال متضرعا:

يا رب ان عظمت ذنوبى كثرة
ان كان لا يرجوك الا محسن
ادعوك رب كما امرت تضرعا
ما لى اليك وسيلة الا الرجا
فلقد علمت بان عفوك اعظم
فبمن يلوذ، ويستجير المجرم
فاذا رددت يدى فمن ذا يرحم
وجميل عفوك... ثم انى مسلم^١

و اعترف بالامل الكذوب قائلا:

سبحان علام الغيوب
تغدو على قطف النفوس
حتى متى يا نفس تغد
يا نفس توبى قبل ان
واستغفرى لذنوبك الـ
ان الحوادث كالرياح
والسموت شرع واحد
والسعى فى طلب التقى
ولقلمما ينجو الفتى
عجبا لتصريف الخطوب
س، و تجتنى ثمر القلوب
تربى بالامل الكذوب
لا تستطيعى ان تتوبى
رحمن غفار الذنوب
ح عليك دائمة الهبوب
والخلق مختلفو الضروب
من خير مكسبة الكسوب
بتقاه من لطح العيوب...!^٢

واستلهم من « كلمة الله هى العليا » قوله:

الله اعلى

كل ناع فسينمى
كل مذخور سيفنى
ليس غير الله يبقى
ان شيئا قد كفيانا
كل باك فسيبكى
كل مذكور سينسى
من علا فبالله اعلى
ه له نسعى ونشقى

١ - الديوان، ص ٦١٨.

٢ - الديوان، ص ٦١٦.

ان للشّر وللخبیة ر لسیما لیس تخفی
 کل مستخف بسر فمن الله بمراى
 لا ترى شیئا علی الله ه من الاشیاء تخفی^١

.....

و يتجلى ايمانه بالمدبر للكون فى قوله:

الله المدبر

یا نواسی توقر و تجمل و تصبر
 ساءک الدهر بشیء و بما سرک اکثر
 یا کبیر الذنب عفو الله من ذنبک اکبر
 فغر عفو الله اصغر
 لیس للانسان الا ما قضی الله و قدر
 لیس للمخلوق تدب یریل الله المدبر^٢

.....

وله فى هذا المضمار قصائد و اشعار كثيرة تستحق دراسة مستوعبة مستوفاة،

و عناوينها كما رويت فى ديوانه:

پژوهشگاه علوم انسانی و مطالعات فرهنگی
 پرتال جامع علوم انسانی

آ- جواهر الدنيا.

ب- عبرة الموت.

ج- محسن و مسى.

د- الدنيا عروس.

هـ- شبع من المعاصى.

و- المتجر الرابع.

ز- حركة من سکون.

ح- حتى متى.

١ - الديوان، ص ٦١٧.

٢ - الديوان، ص ٦٢٠.

ط- الغد .

ى- عفو الله .

ك- فى التراب .

ل- يا سائل الله .

م- عاكف على المعصية .

ن- ليلة محرمة^١ .

و الان و بعد ان طالعت بعض اشعار ابى نواس، و امعنت النظر فيها، فاعتقد انك توافقنى على ان هذه الاشعار ليست مجرد الفاظ جميلة، و عبارات مزوقة، بل هى تعبير صادق عن شعور حقيقى صدر عن رجل وعظه الشيب فآمن ايماننا صادقا، و تاب توبة صحيحة ليس فيها خرق ولا ثلثة .

كما لا يخامرني شك بانك ستوافقني على ما اهدت اليه في دراستي العابرة لهذه الشخصية الفذة، من الناحية الدينية التي قلما تعرض لها الدارسون للادب الاسلامي في العصر العباسي.

و من الجدير بالذكر، ان انوه بفضل جامعة الشهيد چمران فى الاهواز و مسؤوليها و اساتذتها الذين لفتوا انظار جامعات العالم و ادبائه و علمائه الى المؤتمرات العظيمة التي اقاموها و آخرها مؤتمر العالم الشيعى ابن السكيت، و انه لحرى و جدير بهم ان يجللوا هذا الشاعر الكبير - اعنى ابا نواس - و يحيوا ذكره بمؤتمر او مهرجان او احتفال فى بلدتهم التي هى بمثابة الام الكبرى لكافة العلوم الاسلامية والعربية.

و من الله التوفيق